

الفكر الإصلاحى لدى الخليفة الموحدي إدريس المأمون وآثره على بلاد المغرب الإسلامي

The Reformist Thought of the Almohad Caliph Idris al-Ma'mun and Its Impact on the Islamic Maghreb

د. زهيرة لكحل¹

Dr. Zahira Lakhall

عضو باحث في مختبر تاريخ الجزائر، قسم التاريخ وعلم الآثار بجامعة وهران 1، الجزائر

Doi: 10.53283/2157-007-002-006

تاريخ الاستلام: 2025/05/26 تاريخ القبول: 2025/06/02 تاريخ النشر: 2025/06/30

ملخص:

تتناول هذه الدراسة الرؤية الإصلاحية للخليفة الموحدي إدريس المأمون، وأثرها في التحولات السياسية والدينية التي شهدتها المغرب الإسلامي. وانطلاقاً من نظرية ابن خلدون التي ترى أن السلطة السياسية تتبع إما من النبوة أو من دعوة دينية عادلة، يبحث المقال في كيفية تأسيس الحركة الموحدية - بقيادة المهدي بن تومرت - لإحدى أكثر الدول الإسلامية وحدة واستقلالاً في تاريخ بلاد المغرب. وقد دامت هذه الخلافة أكثر من قرن وعشرين سنة، تميزت خلالها باستقلالها عن السلطة السنية في المشرق. يمثل عهد إدريس المأمون (1228-1232م) نقطة تحول محورية في تاريخ الدولة الموحدية، حيث سعى إلى فصل الدولة عن العقيدة المهدوية الأصلية بإلغاء صفة العصمة عن ابن تومرت، وشطب اسمه من الخطبة والعملة الرسمية. كما أطلق سلسلة من الإصلاحات الإدارية والعقدية التي قوضت الشرعية الدينية لأسلافه. وقد ساهمت هذه التغييرات في التعجيل باختيار سلطة الموحدين، وأسفرت عن إعادة رسم الخريطة السياسية للمغرب الإسلامي. تبرز الدراسة كيف أدى سقوط الموحدين إلى نشوء ثلاث قوى سياسية جديدة: الحفصيون في إفريقية، والزيريون في المغرب الأوسط، والمرينيون في المغرب الأقصى. وتعتمد الدراسة على مصادر تاريخية متنوعة لتحليل التفاعل بين الأيديولوجيا الدينية، والبني القبلية، وبناء الدولة.

¹ - بيانات المرسل: اسم ولقب المرسل: د زهيرة لكحل، جامعة وهران 1 البلد الجزائر، البريد الإلكتروني

الكلمات المفتاحية: الموحدون، إدريس المأمون، المهديّة، ابن تومرت، المغرب الإسلامى، الإصلاح

السياسى.

Abstract

This article explores the reformist vision of the Almohad Caliph Idris al-Ma'mun and its impact on the Islamic Maghreb. Building on Ibn Khaldun's theory that political authority emerges from either prophecy or a just religious call, the study examines how the Almohad movement—founded by Mahdi Ibn Tumart—established one of the most unified and independent Islamic states in the Maghreb. The caliphate lasted for over 120 years, distinguishing itself from eastern Sunni authority. Idris al-Ma'mun, ruling from 1228 to 1232 CE, marked a critical shift by distancing the state from the original Mahdist doctrine. He abolished references to Ibn Tumart's divine status and introduced administrative and ideological reforms that challenged the religious legitimacy of his predecessors. These reforms accelerated the decline of Almohad authority and reshaped the region's political map. The study highlights how the fall of the Almohads led to the fragmentation of the Maghreb into three new powers: the Hafsids in Ifriqiya, the Zayyanids in central Maghreb, and the Marinids in the west. The research draws on historical sources to analyze the interplay between religious ideology, tribal dynamics, and state formation.

Keywords: Almohads; Idris al-Ma'mun; Mahdism; Ibn Tumart; Islamic Maghreb; Political Reform

1. مقدمة:

لقد أثبت النظرية الخلدونية أن: "الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك، أصلها: إما نبوة أو دعوة حق"، على هذا الأساس عرفت بلاد المغرب كمجال جغرافى وسياسى خلال فترة حكم الخلافة الموحدية تجربة وحدوية مثلت النموذج الأمثل والوحيد لمعنى "الوحدة المغاربية"؛ التي دامت أزيد من قرن وعشرين سنة من الزمن (541-668هـ/1146-1269م) نجم على أساس دعوة دينية هدفت لإصلاح بلاد

المغرب مستندا فىه المهدي بن تومرت على عصبية قوية؛ أثبتت مدى التفاعل والتكامل الموجود ما بين "الدعوة" و"العصبية" فيما يخص نشأة وتطور الدولة المغربية فى الفترة الوسيطة، إذ تعتبر

وبحق أول دولة مستقلة تماما عن الخلافة السنية بالمشرق، وذلك بتكوين وإقامة خلافة إسلامية مغربية تعبر عن الرغبة الراسخة للمغاربة فى الاستقلال والتميز عن المشرق.

إن التحصيل الذى اكتسبه المهدي بن تومرت شكل القاعدة الأساسية والمنطلق الرئيسى لتحقيق طموحه السياسى، فكانت أولى خطواته تحطيم السنية المعرفية لخصمه بالقضاء على سلطة الفقهاء، حيث استثمر المعرفة والتحصيل الواسع والظروف السيئة فى بلاد المغرب بكل دياره وحواضره؛ كل هذا كَوَّن له القناعة الكافية لأجل "الثورة" على الحكام المرابطين وفقهائهم وأئمتهم

لم يعد المهدي بن تومرت من بلاد المشرق ككثير سياسى، ولكنه عاد ملتزما بأفكار إصلاحية للأعراف والعقيدة الإسلامية، مقتنعا أن من واجبه الوصول لتحقيق هذا الإصلاح، وأنه الشخص الملائم للقيام بذلك، ستدشن هذه الدعوة الجديدة بداية مرحلة منظومة سياسية جديدة. حظيت بالانتشار الواسع لكن سرعان ما بدأت بوادر الضعف والانحلال والتراجع حيث؛ أدت إلى عدة تداعيات على مستوى المجال المغاربى وبداية تغيير الخريطة الجيوسياسية بالمنطقة بدأت بحادث عسكري وختمت بمجموعة من الإصلاحات والتدابير الجديدة على عهد الخليفة إدرىس المأمون (626-630هـ / 1228-1232م)

سارع هذين العاملين فى الانهيار الكلى للخلافة الموحدية وتلاشى شبه كلى للدعوة التومرتية [المهدوية] حيث ستشهد الدعوة المذهبية التى قامت على أساسها الخلافة تغييرا وإصلاحا جديدا يسقط الأسس الأولى التى أقيمت على أساسها الخلافة الموحدية والمتمثلة فى العصمة، والمهدوية؛ حيث رفض الخليفة إدرىس المأمون العمل بمقتضاياتها؛ إن على المستوى التعبدى العقدي أو على المستوى السياسى أو على المستوى الاجتماعى؛ فكان أن جسد ذلك وبرهن عليه بإصداره تعليمات جديدة أدت لظهور نتائج خطيرة على الصعيد السلطوى للخلافة الموحدية، تمثلت فى دخول منطقة بلاد المغرب عهدا سياسيا جديدا، إثر اختيار الخلافة الموحدية من جهة، وتلاشى شبه كلى للعقيدة التومرتية "المهدوية" من جهة أخرى.

وعليه نطرح التالى: ماهى أهم الإصلاحات التى قام بها الخليفة الموحدى إدرىس المأمون؟ ما الأسباب التى أدت به لتغيير أسس الدعوة المذهبية التومرتية؟ ماهى أهم انعكاساتها على المجال المغاربى؟

2. تمهيد حول نشأة الخلافة الموحدية:

لقد نشأت حركة الموحدية في جنوب المغرب الأقصى سنة (515هـ/1121م) (ولد داه، 1977، صفحة 127)، على يد الزعيم الروحي المهدي بن تومرت¹، المنتمي إلى قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة²؛ تلقى المعارف بالعدوة الأندلسية بعد أن انتقل إليها في سنة 500هـ/1106م وقيل سنة (501هـ/1107م) (البيدق، 1986، صفحة 29)، حيث أخذ العلم في مدينة قرطبة ثم في مدينة ألمرية؛ ومنها رحل إلى المشرق، ونزل بالإسكندرية وأخذ عن عالمها أبي بكر الطرطوشي³، ثم رحل إلى بغداد حيث أقام فيها لمدة، وهناك قال ابن القطان أنه التقى بالإمام أبي حامد الغزالي (قطان، 1990، صفحة 73) (النويري، 1985، صفحة 396)، ليعود منها إلى بلاد المغرب، داعياً إلى الأمر بالمعروف ونهاياً عن المنكر (النجار، 1983، صفحة 84).

ذكر البيدق تاريخ عودته كان سنة (510هـ/1116م)، مر خلالها بمدينة طرابلس والمهدية وتونس، إذ كان يقيم بكل مدينة مرّ بها (البيدق، 1986، صفحة 29)، ثم نزل مدينة بجاية، حيث جلس هناك لتدريس العلم والوعظ، ثم خرج منها واستقر بضبعة ملالة (المراكشي، صفحة 137)، إذ يصرح ابن خلدون إلى التقاء المهدي بن تومرت بخليفته عبد المؤمن بن علي، إثر خروجه من بجاية بضبعة تبعد عنها بفرسخ واحد (ابن خلدون، 2013، صفحة 1910)، الذي كان قاصداً المشرق لطلب العلم؛ إلا أن المهدي بن تومرت استطاع أن يقنعه بأن العلم الذي يريده في المشرق يمكنه أن يتحصل عليه هنا في المغرب، ليخرج المهدي بن تومرت ومعه عبد المؤمن بن علي عائداً إلى المغرب الأقصى لينزل بعدها بمدينة مراكش⁴، التي كانت حاضرة المرابطين وقتئذ؛ لقد رأى فيها المناكر والبدع هذا ما جعله أكثر إصراراً على التغيير والإصلاح، حيث بدأ إلقاء الدروس موعظاً، يأمر الناس بالمعروف وينهى عن المنكر (النجار، 1983، صفحة 98)، بعدها صار المهدي بن تومرت إلى تينملل المكان الذي ستنتقل منه الدعوة الموحدية (المراكشي، صفحة 140)، إذ أعلن عداؤه فيها للمرابطين، وحث الناس على محاربتهم وشرع في تنظيم أتباعه وأعوانه، واجتمعوا إليه وأعلن "مهديته"، فبايعه أصحابه، أصحابه متتالين

طبقة بعد طبقة، ولما كملت البيعة لقبوه "بالمهدي" و"الإمام المعصوم" (عنان، 1990، الصفحات 173-174).

لم يعد المهدي بن تومرت من بلاد المشرق ككثير سياسى، ولكنه عاد ملتزما بأفكار إصلاحية للأعراف والعقيدة الإسلامية، مقتنعا أن من واجبه الوصول لتحقيق هذا الإصلاح، وأنه الشخص الملائم للقيام بذلك (تورنو، 1998، صفحة 16)، استدشن هذه الدعوة الجديدة مرحلة صراع بين الموحدين والمرابطين، حيث تعد موقعة البحيرة 5 سنة (524هـ/1130م) من أهم الأحداث العسكرية، التي نشبت بين الجيش الموحدي بقيادة البشير النوشريسي والجيش المرابطي بقيادة علي بن تاشفين، المنتهية بقتل قائد الموحدين وهزيمة جيوشهم (العالمى، 2010م، صفحة 186)، لم يلبث المهدي بن تومرت طويلا بعد هذه الهزيمة حتى توفي في نفس السنة (ابن القطان، صفحة 167)، ولم يعلن عن وفاته إلا بعد مرور ثلاث سنوات، وكان ذلك سنة 527هـ/1132م ليعين مكانه عبد المؤمن بن علي، فيكون أول خلفاء الدولة الموحدية متبعا نظام توريث الحكم من بعده (مؤنس، 1980، صفحة 68)، إن المطلع على تاريخ الدولة الموحدية سيدرك - كما يرى لي تورنو - أنها حركة تلقت حافزها من التطور الروحي لشخص بمفرده، ومن إرادته التي لا تنثني لانجاز الرسالة (تورنو، 1998، صفحة 17)، لقد استطاع المهدي بن تومرت بفضل خلفائه من بعده أن يحققوا وحدة سياسية لم يسبق لمنطقة الضفة الجنوبية أن عرفتها إذا ما استثنينا مرحلتى الفتح الإسلامى بميزة عالية والوجود العبيدي بخاضية أو ميزة أدنى منها، بل إنهم تمكن من تعدى المنطقة بضم جزء من الضفة المقابلة وامتلاكهم العدو الأندلسية؛ فكانت الدولة الموحدية أعظم دولة عرفتها المنطقة المغاربية بفعل امتداد سلطتها؛ أي "من طرابلس شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، مع تبعية العدو الأندلسية لملكهم (مؤنس، 1980، صفحة 56).

هكذا إذن ظهرت دعوة بن تومرت في بدايتها كما سبق الذكر، كحركة إصلاحية متلائمة مع الواقع الذي كانت تعيشه المنطقة من تشتت وضياع، في الوقت التي كانت الدولة المرابطية في مرحلة عمرها الأخير الذي عرف عند المؤرخ عبدالرحمان ابن خلدون بطور "الهرم والاضمحلال"، حيث بلغ فيهم الترف مبلغة وغايته بما تفننوه من النعيم ورغد العيش، وتسلبت نسائهم على زمام الأمور كلها، كما أصبح للفقهاء المكانة العالية في الدولة، رغم عيبتهم المتمثل في تزميتهم وولوجهم أمور السياسة دون أن يكونوا أحق بها وأهلا لها؛ فأفسدوا أكثر مما أصلحوا ولم ينكروا المنكرات التي كانت تحدث في أواخر عهد دولتهم (شواكرى، 2013-2014، صفحة 133).

ففي هذا الإطار نلاحظ بأن النظرية الخلدونية المركزة على مبدأ "القوة والغلبة، الذي يتطلب عصبية قوية تعلق على كل العصبية لتأسيس الملك والسلطة؛ فإنها اتهمت بالنقص حيث نجد التاريخ حافلاً بأخبار الدول التي قامت وتأسست دون أن ينتمي مؤسسوها إلى عصبية قوية، وعليه لا بد من وجود عامل آخر يرفع شأن القبيلة، ويمكنها من تعويض ملك بال وإنشاء آخر مكانه، هذا العامل هو عامل الدين أو الدعوة الدينية (شواكري، 2013-2014، صفحة 138)، حيث يؤكد ابن خلدون ذلك في قوله: "الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك، أصلها: إما نبوة أو دعوة حق" (ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر - مج 01، د ت، صفحة 89).

بمعنى أن نجاح المهدي بن تومرت في تأسيس ملك الموحدين نجم على أساس دعوة دينية هدفت لإصلاح بلاد المغرب مستندا في أمره على عصبية قوية؛ وهذا ما يثبت مدى التفاعل والتكامل الموجود ما بين "الدعوة" و"العصبية" فيما يخص في نشأة وتطور الدولة المغربية في الفترة الوسيطة، إذ تعتبر وبحق كما عبر عنها أحد الباحثين أول دولة مستقلة تماما عن الخلافة السنية بالشرق، وذلك بتكوين وإقامة خلافة إسلامية مغربية تعبر عن الرغبة الراسخة للمغاربة في الاستقلال والتميز عن المشرق (كنوش، 1988، صفحة 59).

3. إصلاحات الخليفة إدريس المأمون:

تؤرخ هذه البداية بتولي الخليفة إدريس المأمون (626-630هـ / 1228-1232م) (الإيلاني، 2013، الصفحات 262-263) الذي بدأ حكمه بسلوك وموقف معاكس تماما لأسلافه من الحكام بعد أن أدرك الواقع المغاربي وأخطاء أسلافه فكان أن أمر بالقضاء على نزعة من سبقه من الخلفاء الموحدين خصوصا فيما تعلق بتعاليم العقيدة "المهدوية"؛ مع رفض العمل بمقتضاياتها: إن على المستوى التعبدى العقدي أو على المستوى السياسى أو على المستوى الاجتماعى أو على المستوى الجغرافى (العروي، 2012) (القبلي، د ت، صفحة 36)، فكان أن جسد ذلك وبرهن عليه بإصداره تعليمات قضت بحذف اسم المهدي بن تومرت من الخطبة وكذا العملة النقدية ومن الوثائق الرسمية، كما أن في عهده لم يصبح يُعترف فيه لا بالمصامدة ولا بأولويتهم على الصعيد السياسى وكذا الاجتماعى والخلاصة

أن عهده مثل نهاية الاستناد على قبيلة المصامدة فيما يخص تسيير شؤون الخلافة على جميع الأصعدة الأمر الذي سيؤدي عملياً إلى إلغاء الخلافة (القبلي، د ت، صفحة 36).

إننا نستخلص مما سبق ذكره ظهور نتائج خطيرة جراء هذه التطورات على الصعيد السلطوي للخلافة الموحدية، تمثلت في مظاهر منها: الخروج عن طاعة الخليفة إدريس المأمون، وتقلص نفوذ السلطة المركزية التي كانت تعتمد أساساً على عنصر "المصامدة" باعتبارهم عصب الحكم وقاعدته الرئيسية، وبداية دخول منطقة بلاد المغرب عهداً جديداً وفعلاً جاء الرد سريعاً، بحيث لم تلبث الخلافة في أواخر عهدها أن فوجئت من طرف أبي زكريا الحفصي بتونس بخلع الطاعة واستبداده بالأمر، معتبراً نفسه وصياً على حماية عقيدة ومبادئ الموحدين، لقد دلّ هذا الأمر على بداية انهيار الخلافة الموحدية من جهة، وتلاشي شبه كلي للعقيدة التومرتية "المهدوية" من جهة أخرى، وبداية عودة الانتصار للمذهب المالكي من جديد على أيدي الدول التي ستقوم إثر السقوط النهائي للخلافة.

4. انعكاسات إصلاحات الخليفة إدريس المأمون على بلاد المغرب سياسياً: ظهور الحركات

الانفصالية واقتسام التركة الموحدية:

تقلص نفوذ السلطة المركزية: إن مفهوم الدولة كما أقره المؤرخ عند ابن خلدون هو ذاك "الامتداد المكاني والزمني لحكم عصبية ما" (الجابري، د ت، صفحة 211)، بمعنى أن توسع حصة الدولة من الممالك والأوطان التابعة لها وطول أمدها متوقف على مدى قوة عصبيتها، وقوة التلاحم والانسجام بين أفرادها (الجابري، -فكر ابن خلدون- "العصبية والدولة" معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، صفحة 212)؛ فابن خلدون يربط نظريته بالعصبية ارتباطاً عضوياً، لذلك كان معنى الدولة يختلف باختلاف الزاوية التي ينظر منها إلى العصبية الحاكمة ورجالها، والعلاقات السائدة بينهم من جهة، وبين العصبية الخاضعة لهم من جهة ثانية، ولعل أكثر الأخطاء التي وقع فيها الباحثون في تأويلاتهم وشروحاتهم لآرائه في الدولة راجعة إلى هذه النقطة بالذات؛ فتمودج "السلطة" التي حدثنا عنها ابن خلدون والتي ربطها بالدعوة والعصبية اعتبر أن غيابهما لا يمكن من تأسيس الملك (ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصروهم من ذوي السلطان الأكبر - مج 01، د ت)؛ فإن لم تتوفر عصبية قوية تميزها وتعلو بها عن باقي العصبية فليس لها أي أهمية؛ كم شهد التاريخ من قبائل عريقة وكبيرة لكن قصرت بها عصبيتها عن إحداث الملك، وعليه فالكلام عن القبيلة دون عصبية ليس له معنى في المفهوم الخلدوني للعمران البشري (شواكري، 2013-2014، صفحة 61)، إن هذه المسألة

أثبتت أن الملك القوي استلزم توفر شرطين أساسيين، وهو ما غابا إثر زوال الملك الموحدي وبداية تقاسم الإرث بين القبائل التي كانت منضوية تحت سلطتها وخاضعة لها؛ فهل يمكن تأسيس ملك جديد في ظل غياب العصبية القوية والدعوة الدينية؟

إن هذا التساؤل أول إشكالية من بين الإشكاليات التي سنحاول مقاربتها والإجابة عليها مع تطور الأحداث التي أفرزت ذلك التغير الجيو-سياسي للمنطقة المغاربية، إثر انفصال القبائل التي كانت خاضعة لسلطة الخلافة الموحدية، والتي رغبت في إرث تركتها؛ الأمر الذي انتهى باقتسام القبائل للملك الذي أقامه المهدي بن تومرت؛ هذا الملك الذي كان له وقع كبير على الساحة المغاربية، لما سببه وولده من تناحر وتنافس بين القبائل، وعلى رأسها قبيلة زناتة⁶ البربرية، التي رأت نفسها ورثاً شرعياً للملك الموحدين، فلم تعد للمنطقة وحدة سياسية إذا ما عدنا للتفسير الخلدوني، فالملك يحدث إذا وجدت "عصبية قوية" وهو ما افتقدته؛ فقبيلة زناتة التي ادعت الشرعية كانت منقسمة على نفسها، ولم يكن بين أفرادها ذلك التلاحم والانسجام المتحول إلى كتلة واحدة يحركها الولاء بهدف تحقيق وحدة سياسية جديدة بداية من القرن السابع الهجري/الثالث عشر ميلادي، والذي بفعله يحدث الملك هذا من جهة، فضلاً عن افتقادها لعامل آخر كان سبب في إفشال المشروع الوحدوي والمتمثل في غياب "الدعوة الدينية" التي كان لحضورها المستمر دور في التغير السياسي في تاريخ المنطقة المغاربية من جهة أخرى.

إنَّ القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، هو بداية تحول سياسي لم تعد فيه سلطة مركزية واحدة قادرة على إخضاع القبائل المتعددة المتفرقة: فكان الوضع يقتضي اقتسام كل قبيلة لنفسها جزءاً من المنطقة لإقامة ملك فيها، إنه فعلاً تحول جيوسياسي عرفه المجال المغاربي عهدها نتج عنه قيام ثلاث دول أو سلطت توزعت على جغرافيته كآلاتي: سلطة بالمغرب الأوسط التي تمثلها قبيلة بني عبد الواد أو ما يعرف بالدولة الزيانية لاحقاً وسلطة بالمغرب الأدنى بإفريقية ممثلة من قبل بني حفص وسلطة بالمغرب الأقصى مثلتها قبيلة بني مرين.

سلطة المغرب الأوسط: (بنو عبد الواد): تنتمي قبيلة بني عبد الواد إلى قبائل زناتة (ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر - مج2، 2013، صفحة 2109)، التي كانت ترتاد جبال وصحراء المغرب الأوسط، بشروع الموحدين في فتح

هذه البلاد كان بنو عبد الواد العون القوي لهم والمخلصين في خدمتهم، لأجل هذا نالوا مقابل ذلك إقطاعات شملت منطقة وهران وما يليها غربا حتى تلمسان (ابن الأحرر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، 2001، صفحة 10) (مارسيه، د ت، صفحة 317)، لقد استغلت قبيلة بني عبد الواد ضعف الدولة الموحدية لتسيطر على مدينة تلمسان، فكان أمرهم في البداية لشيخهم جابر بن يوسف الذي عقد له الخليفة الموحي المأمون إقليم تلمسان وما يليه سنة 627هـ/ 1229م، حيث أخذ جابر يدير شؤون الإقليم ويوسع رقعته ويوطد أركانه، فأطاعه بنو عبد الواد باستثناء أهل ندرومة⁷، الذين تخلفوا عن مبايعته؛ مما دفع بني عبد الواد لمحاصرتهم لكن زعيمهم جابر بن يوسف لقي حتفه سنة 629هـ/ 1231م (بن خلدون، 2011، صفحة 220)، ليتولى بعده ابنه الحسن بن جابر الذي تخلّى عن الحكم بعد ستة أشهر لصالح عمه عثمان بن يوسف، لقد أساء هذا الأخير السيرة فعزل، وكان ذلك سنة 631هـ/ 1233م (ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر - مج 2، 2013، صفحة 2111) ليخلفه ابن عمه عزة بن زيان بن ثابت، فالتفت حوله الأعراش والقبائل باستثناء "بني مطهر" الذين عارضوه رفقة حلفائهم من "بني راشد" 8، فقام بمحاربتهم إلا أنه قتل أثناء هذه الحرب سنة 633هـ/ 1235م (ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر - مج 2، 2013، صفحة 2111)، ليخلفه السلطان يغمراسن بن زيان⁹، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العبد الوادية (الزيانية).

لم تكن للدولة الزيانية حدود ثابتة ومستقرة بل كانت حدودها تتسع وتقلص حسب قوتهم العسكرية والاقتصادية، وحسب وحدة سلاطينهم وانسجام قبائلهم (فيلاي، د ت، صفحة 43)، فالناحية الغربية ظلت ثابتة منذ تأسيسها والتي يحدها حسب ما ورد عند الحسن الوزان "واد زا وغر ملوية" (الوزان، 1983، صفحة 07)، بينما حدودها الشرقية المتاخمة للدولة الحفصية ظلت مجالا للتوسع كلما أتاحت الفرصة لسلاطينها (فيلاي، د ت، صفحة 44).

سلطة المغرب الأقصى: (بنو مرين): هم أحد بطون قبيلة زناتة الكبرى الأكثر عددا والأشد بأسا؛ يعتبرون قبائل رحل سكنت الصحاري والقفار في منطقة امتدت من جنوب القيروان إلى صحراء بلاد السودان (القرطوبي، 2013، صفحة 39)، لقد ذُكر أن بني مرين "كانوا يسكنون بلاد القبلة من زاب إفريقية، وينتقلون من مكان إلى مكان، وجل أموالهم الإبل والخيل، وطعامهم اللحوم والتمر"

(القرطوطي، 2013، صفحة 39)، يؤكد صاحب الدخيرة السنية هذا النمط من العيش لهم فيقول: "لا يعمرون إلا القفار ولا يؤدون لسلطان بدرهم ولا دينار، ولا يدخلون تحت حاكم ولا سلطان، ولا يرضون بذل ولا هوان، لهم همم عالية، ونفوس إلى المعالي سامية، ولا يعرفون الحرث ولا التجارات، ولا يشتغلون بغير الصيد والغارات، جل أموالهم الإبل والخيول، ودأبهم الحرب... وشيمهم إكرام الضيف، وضرب أعدائهم بالسيف" (ابن أبي زرع الفاسي، صفحة 26)، فهذه الوصف المصدري يدل على قوة عصبية زناتة ودورها في تأسيس دولتهم التي ستقام في المغرب الأقصى وتتخذ مدينة فاس عاصمة لها؛ وإن لاحظ عليها الباحث المغربي "محمد المنوني" كون هذه الدولة المرينية التي قامت سنة (668هـ/1269م) لم تتوفر على القوة والنظام اللذان كانا لدى الموحدين وهو من الأسباب التي جعلت قبيلة بني مرين لا تستطيع استعادة الملك الموحدي بشمال إفريقيا والأندلس (المنوني، 2000، صفحة 14)، ولذلك توزع هذا الملك الواسع واقتسم بين بني عبد الواد الذي سبق إيرادهم وبين الحفصيين الذين سنأتي على ذكرهم لاحقا.

من المعلوم أن "زناتة" هي من القبائل البربرية المعروفة في المنطقة الجنوبية للمتوسط منذ زمن قدم واستوطنت ما بين غدامس والمغرب الأقصى مرورا بـجبال طرابلس وإفريقية فـجبال الأوراس حتى المغرب الأقصى، واستقر أغلبهم في بلاد المغرب الأوسط الغربي، حتى إنه اشتهر بـ"موطن زناتة" (الناصري، د ت) (القرطوطي، صفحة 43) كما كان من بينهم بطون زناتية امتدت مواطنها من "فيكيك" إلى سجلماسة إلى ملوية وربما يخطون في ظعنهم إلى بلاد الزاب" (ابن خلدون، 2013، صفحة 2176).

لقد أحس بنو مرين بتصدع كيان الدولة الموحدية، وأن بإمكانهم الاستقرار في أراض أصح من أراضيهم لتحسين أوضاعهم ببلاد المغرب، فشنوا الغارات على بلاده فسالوا من أطاعهم وحاربوا من قاتلهم في المغرب الأقصى الذي شهد سنة 616هـ/1219م تردي الأوضاع التي وصفها ابن أبي زرع الفاسي وصفا لغويا بديعا ينم عن خطورة بالغه قائلا: "كثرت الفتن بين قبائل المغرب، واشتد الخوف في الطرقات، ونبذ أكثر القبائل الطاعة وفارقوا الجماعة، وقالوا: لا سمع ولا طاعة... فاقطع الحرث واشتد الغلاء في البلاد بسبب الإهمال والفساد" (ابن أبي زرع الفاسي، صفحة 36)، وانحصرت إثرها سلطة الموحدين في المدن وفقدوا السيطرة على القبائل.

لا يتجسد الملك السياسى فىكون له اعتبار على أرض الواقع - كما ذكرنا- إلا: بعضىة قبلية قوية أو دينية أو بحد السيف وإرادة القوة؛ لم يتخذ المرىيون عامل الدين أساسا لدعوتهم، كما فعلت الدول التى سبقتها كالمرابطين والموحدين وإنما ظل مذهبهم يرتكز أساساً على العصىية القبيلة ودعوتهم بحد السيف وإرادة القوة إذ من خالهما سعوا لتكوين دولة وإصلاح الفساد الذى حل بالمغرب، وإن كان شعارهم يقتضى بإلغاء عقيدة المهدي بن تومرت والعودة إلى نقاء مذهب المالكي وسننه وطرقه، وهى فرصة سانحة استفاد منها أتباع مذهب "مالك بن أنس" واستغلوها أحسن استغلال من أجل العودة إلى ممارسة مذهب "أهل السنة" والتعبد به، مادام أتباعه عدوا بمتابة الأغلبية ببلاد المغرب يومها وإن حرمتهم دولة الموحدين منه هذه المدة من الزمن بحد السيف والقوة (القرقوطى، صفحة 49).

سلطة المغرب الأدنى (بنو حفص): ينسب بنو حفص إلى الشيخ "عبد الواحد بن أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى" (ابن عذارى، 1985، صفحة 290)؛ من قبيلة هنتاة أعظم قبائل المصامدة عهدا (القلقشندي، قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان، 1982، صفحة 169)، فى سنة 603هـ/1206م، تم تعيين عبد الواحد بن أبى حفص واليا على إفريقيا، فمثل هذا مرحلة تمهيد للانفصال عن الملك الموحدى، وإن كان الانفصال يعود أساسا إلى الضعف الذى أصاب ملك الموحدين بسبب الفتن والاضطرابات الداخلية والثورات (المطوى، 1986، الصفحات 92-93)، ولقد وصف لنا عبد الرحمان ابن خلدون تلك الأسباب التى اتخذها وجعلها المؤسس الحقيقى للدولة الحفصية أبى زكريا الحفصى حجة لانفصاله عن الخلافة الموحدية فقال: "لما اتصل به ما آتاه المأمون من قتل الموحدين بمراكش، وخصوصا من هنتاة وتينملل، وكان منهم أخواه أبو محمد عبد الله المخلوع وإبراهيم... وأنه غير رسوم الدعوة، وبدل أصول الدولة، وأسقط اسم الإمامة من الخطبة والسكة... أعلن بخلعه سنة ست وعشرين وستمائة" (ابن خلدون، 2013، صفحة 1947) (العروى، 2012، صفحة 338).

أى أنّ تدابير الخليفة إدرىس المأمون10، التى حاول من خلالها إعادة الأمور لنصابها بالاقتصاص العلنى من خصومه بعد إدانتهم، هذا الاقتصاص الذى تعلق الأمر كما ورد فى نص ابن خلدون بالأشياخ الذين اعتبرت غالبيتهم من قبيلة هنتاة، فكان أن عجل المأمون بمحاكمتهم، لذا جاءه الرد سريعا، بإعلان أبى زكريا الحفصى الانفصال والعمل على الاستجابة لمطامحه فى بناء دولة مستقلة تمثل الكيان الموحدى، بحكم كونه من سلالة المهدي بن تومرت (القبلى، د ت، صفحة 37) وأول عمل باشره هو استرجاع حدود إفريقيا إلى ما كانت عليه خلال عصر الدولة الصنهاجية الموحدة، حيث توجه لقسنطينة وبجاية

لضمهما (المطوي، 1986، الصفحات 129-132)، إذ يكون بهذا قد استولى على أكبر نصيب من التركة الموحدية؛ فيقول عنهم ابن الأحمر [أي الحفصيين] أنهم "بسطوا سلطانهم على شرقي المغرب الأوسط، واحتلوا بجاية وإقليم الزاب، ووصلوا بحدودهم إلى المجرى الأعلى لنهر شلف" (ابن الأحمر، 1972، صفحة 09) محافظين شكلياً على المهدية إثباتاً لشرعية وراثتهم (عزاوي، 2015، صفحة 65)؛ ستدشن بلاد المغرب مرحلة جديدة من الصراعات العسكرية والسياسية بين تلك السلطات الثلاث الناشئة وما سوف ينجر عنه من تحالفات قبلية لمساندة تلك السلطة أو تلك.

خاتمة: لقد كان للتدابير والإصلاحات التي أعلن عنها الخليفة الموحدي إدريس المأمون أثر كبير في تغيير الخريطة الجيوسياسية على بلاد المغرب ليتحول هذا المجال من مجال جغرافي موحد إلى مجال متفرق. حيث لم تعرف بعدها المنطقة المغاربية وحدة سياسية بعد زوال الملك الموحدي الذي دام أزين من قرن وعشرين سنة من الزمن رغم الروابط المشتركة التي جمعت دول بلاد المغرب دينياً وثقافياً واقتصادياً.

الاحالات والشروحات:

1 المهدي بن تومرت: ترجم له ابن العماد الحنبلي فقال عنه: " كان رجلاً ورعاً، ساكناً ناسكاً في الجملة، زاهداً متقشفاً شجاعاً جلدأً عاقلاً، عميق الفكر بعيد الغور، فصيحاً مهيباً، لذته في الأمر المعروف والنهي عن المنكر، والجهاد، ولكن جره إقدامه وجرأته على حب الرئاسة...، وهو هرغي بربري وهو إمام معصوم..." (شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج6، 1986، صفحة 117)/ ينظر أيضاً: (النويري، 1985، صفحة 395).

2 مسمودة: قبيلة بربرية من البرانس-، (ابن خلدون، عبد الرحمان، 2013، صفحة 1899)/ (القلقشندي، 1980، صفحة 422).

3 الطرطوشي: يكنى أبا بكر، هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي - نشأ في الأندلس بمدينة طرطوشة، ثم انتقل للمشرق، أخذ عنه الناس هناك العلم وقيل أنه كان متقدماً في الفقه مذهباً وخلقاً، (فرحون، 1996، الصفحات 371-372)

4 **مراكش:** هي إحدى المدن التي أسسها يوسف بن تاشفين سنة (459هـ/1067م)، وهي تقع على بعد ثلاثة أميال من وادي تنسيفت، وتعد من المدن الطيبة التربة الكثيرة الزرع (مجهول، د ت، الصفحات 208-209).

5 **البحيرة:** تعرف أيضا ببحيرة الرقاق البسيط، كان قرب باب الدباغين وباب أيلان من مراكش، الذي جرت فيه الوقعة الكبيرة عام 524هـ/1130م (ابن الأحرر، 1972، صفحة 32) (النويري، 1985، الصفحات 403-404).

6 **زناتة:** من أهم القبائل البربرية، التي استوطنت وتركزت بالمغرب الأوسط وقتها واعتبرت المنطقة موطن للقبيلة الزناتية، قسم المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون في كتابه القبيلة إلى طبقتين: الطبقة الأولى قبيلة بني يفرن أكبر قبائنها وأشدهم شوكة، ولقد كان منهم بإفريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط ورد في مج 2 ص 2068. ومن نفس الطبقة: مغراوة يذكر أنهم أوسع بطونهم ويحدد لنا مجالاتهم بأرض المغرب الأوسط (من شلف إلى تلمسان إلى جبل مديونة) ورد ذكرها ص 2077. ثم من بعدها يذكر الطبقة الثانية: تمثّلها بنو واسين (إخوة مغراوة وبني يفرن)، التي ستعرف بطونها بـ (بني مرين- بني عبد الواد- بني توجين) - مج 2- ص 2100.

7 **ندرومة:** مدينة بقرب من تلمسان، وهي من المدن الكبيرة العامرة الأهلة ولها مزارع عدة (الإدريسي، 2016) - ص 324.

8 **بنو راشد:** ينتمون لقبيلة زناتة - مواطنهم بالصحراء ثم استوطنوا جبل بني راشد وهو يعرف حاليا (بجبال عمور) (ابن خلدون، عبد الرحمان، 2013، صفحة 2103).

9 **يغمراسن بن زيان:** أبو يحيى، بويع سنة 633هـ/1235م بعد مقتل أخيه أبي عزة، كان شجاعا فاضلا، حكيما، متواضعا (ابن خلدون ي.، 2011، صفحة 225)/ ينظر أيضا (ابن خلدون، عبد الرحمان، 2013، صفحة 2113).

10 **لقد حاول إدريس المأمون بهذه التدابير إضعاف جهاز الأشياخ والثاني إقدامه على تحطيم الإطار الإيديولوجي لقوتهم بتصريحه حول أن المهدوية "بدعة" ينظر:** (عزاوي، 2015، صفحة 64)

قائمة المصادر والمراجع:

— ابن أبي زرع الفاسي. (بلا تاريخ). الدخيرة السنية.

- ابن الأحمر. (1972). *بيوتات فاس الكبرى*. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة.
- ابن الأحمر. (2001). *تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان*. (تحقيق: هاني سلامة) الجزائر: مكتبة الثقافة الدينية.
- ابن خلدون. (د ت). *العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر* - مج 01.
- ابن خلدون، عبد الرحمان. (2013). *العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر* - مج 2. (اعتنى به وراجعته: درويش الجويدي) صيدا- بيروت: المكتبة العصرية.
- ابن سماك العاملي. (2010م). *الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية*. بيروت: دار الكتب العلمية
- ابن عذاري. (1985). *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب-قسم الموحدين*. (تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون) بيروت: دار الغرب الإسلامى.
- ابن فرحون. (1996). *الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب*. (تحقيق: مأمون بن محي الدين الجنان) بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن قطان. (1990). *نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان*. (درسة وقدم له وحققه: محمد علي مكى) تونس: دار الغرب الإسلامى.
- أبو العباس أحمد الناصري. (د ت). *السلامي كشف العرين عن بيوت بني مرين* - مخطوط ورقة 61.
- أحمد عزوي. (2015). *مقالات تاريخية عن الغرب الإسلامى "وثائق وعلاقات"*. الرباط: منشورات الرباط.

- الإدريسي. (2016). *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*. (اعتنى به: طلال سالم الحديشي) دمشق: دار العرب و دار حوران للدراسات والنشر والترجمة.
- البيدق. (1986). *أخبار المهدي بن تومرت*. (تحقيق وتعليق: عبد الحميد حاجيات) الجزائر.
- الحسن الوزان. (1983). *وصف إفريقيا- ج2*. (ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي و محمد الأخضر) بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- القلقشندي. (1980). *نهایة الأرب في معرفة أنساب العرب*. (تحقيق: إبراهيم الأبياري) بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- القلقشندي. (1982). *قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان*. (حققه إبراهيم الأبياري) بيروت – القاهرة: دار الكتاب اللبناني – دار الكتاب المصري.
- النويري. (1985). *الغرب الإسلامي في العصر الوسيط (إفريقية والمغرب والأندلس، صقلية وأقريطش)*. (تحقيق: مصطفى أبو ضيف أحمد) المغرب: دار النشر المغربية.
- جورج مارسيه. (د ت). *بلاد المغرب وعلاقاتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى* – منشأة المعارف –. (ترجمة: محمود عبد الصمد هيكل، مراجعة مصطفى أبو ضيف) الإسكندرية.
- حسين مؤنس. (1980). *الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين"*. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- روجر لي تورنو. (1998). *حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر*. (تعريب: أمين الطيبي) الدار البيضاء.
- *شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج6*. (1986). (حققه وعلق عليه: محمود الأرناؤوط) دمشق، بيروت: دار ابن كثير.
- صالح عبد الحليم الإيلاي. (2013). *مفاخر البربر*. (تحقيق: عبد القادر بوباية) الجزائر: مؤسسة البلاغ للنشر والدراسات والأبحاث.

- عبد اللطيف كنوش. (1988). السلطة والمؤسسات السياسية في مغرب الأمس واليوم. مكتبة بروفانس: الدار البيضاء.
- عبد الله العروي. (2012). مجمل تاريخ المغرب. الدار البيضاء-المغرب: المركز الثقافي العربي.
- عبد الله عنان. (1990). عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ج3. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- عبد المجيد النجار. (1983). المهدي بن تومرت "حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وآثره بالمغرب. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- مجهول. (د ت). الاستبصار في عجائب الأمصار. (تعليق: سعيد زعلول عبد الحميد) بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- محمد العروسي المطوي. (1986). السلطنة الحفصية "تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي. بيروت لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- محمد القبلي. (د ت). المجتمع والحكم والدين.
- محمد المنوني. (2000). ورقات عن حضارة المرزنيين. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- محمد عابد الجابري. (د ت). -فكر ابن خلدون- "العصبية والدولة" معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي. بيروت: مركز الدراسات الوحدة العربية.
- محمد عابد الجابري. (بلا تاريخ). -فكر ابن خلدون- "العصبية والدولة" معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي. بيروت: مركز الدراسات الوحدة العربية.

- محمد ولد دادة. (1977). مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع "دراسة في التاريخ الساسي". القاهرة- بيروت: دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري.
- معمر الهادي محمد القرطوطي. (2013). الحياة الاقتصادية في دولة بني مرين (668-869هـ/1269-1465م). ليبيا: جامعة الزاوية.
- منير شواكري. (2013-2014). أسس قيام الدولة في المغرب الإسلامي وفق نظرية ابن خلدون- الدولة الموحدية- نموذجاً (510-558هـ/1116-1163م) رسالة ماجستير. الجزائر: جامعة أبو بكر بلقايد- تلمسان.
- يحيى ابن خلدون. (2011). بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1. (تقديم وتحقيق وتعليق: عبد الحميد حاجيات) الجزائر: عالم المعرفة.